(١٣) العلاقة بين العالِم والحاكِم

(العلاقة بين العلماء والحكام)

د. صلاح سلطان:

نتناول قضية انفصال العلماء عن واقعهم علاقتهم بالحكام، فهناك حالة انفصال إما علماء يجرون وراء الحكام ويسوغون الأحكام التي يريدها الحكام، وإما علماء يلعنون من بعيد ما يفعله الحكام ولا يقدمون النصح الّذي أمرهم الله تبارك وتعالى به كما قال سبحانه: {اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ. فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ} [طه: ٤٣-٤٤]

فهناك علاقة غير سوية، وليست العلاقة التي يمكن أن نقول أنها تنتج رؤية واحدة في اتجاه واحد، فهناك علماء يريدون للحكام أن يرجعوا إليهم قبل أن يتصرفوا وهذا قليل جدًا، وعلماء آخرون يقومون بعمليات تسويغ حتى من غير أن يُطلبَ منهم والبعض يطلب منهم فيقول الحرام حلالًا والحلال حرامًا، والبعض الآخر لا يتدخل في هذا الأمر مطلقا فلا يتكلم في قضايا تخص الحكام.

هذه الإشكالية الموجودة الآن، مع الانتباه يقينًا أن التغيير لن يأتي أبدًا إلا بالتحام أولي الأمر، بنوعيهم العلماء والأمراء، هذا الالتحام الّذي أنتج في حِقبة العز بن عبد السلام مع سيف الدين قطز، وقبله مع الملك نجم الدين أيوب، فهذه هي الحالة المثالية التي أنتجت جيشًا جرارًا كان من ثمراته موقعة عين جالوت والانتصار العظيم سنة ٦٥٨ هـ..

د. راغب السرجاني:

القضية حساسة ونبغي بها الخير لأمتنا ونبغي بها الخير لحكامنا، فعندما يتكلم أحدنا في قضية نُصح العالِم للحاكم أو أمر العالِم للحاكم في بعض القضايا الّتي ينبغي أن يطيع فيها الحاكم لأمر ربه عزَّوجلَّ، ويكون العالِم هو الذي يعرف الحكم ويأمر الحاكم أن ينفذ هذ الحكم، الذي ارتضاه ربنا عزَّوجلَّ لعباده، هنا المستفيد الأول من هذه القضية هو الحاكم.

هذا الحاكم، ربنا سبحانه وتعالى وإن كان سيسأله عن أمة كاملة وقد يعذب بها أبد الآبدين أن ظلم، هو في نفس الوقت مؤهل ليكون في ظل عرش الرحمن يوم لا ظل إلا ظلّه، قال رسول الله صل الله عليه وسلم: «سبعةٌ يُظِلُّهمُ اللهُ في ظِلِّه يومَ لا ظِلَّ إلا ظِلُّه" كان أولهم " الإمامُ العادلُ»

الراوي: أبو هريرة -المحدث: البخاري

المصدر: صحيح البخاري - الصفحة أو الرقم: ٦٦٠

خلاصة حكم المحدث: [صحيح]

وهذه مكانة كبيرة وسامية جدًا، لأن هذا الحاكم وصل إلى هذه الدرجة لأنه عدل بين أفراد شعبه، وهذا العدل ليس في قضية العلاقة فقط بين متقاضين، بل العدل في توزيع الأموال والعدل في الأحكام، والعدل في تقديم الأولويات والوظائف والمناصب التي يوزعها على الناس، فيكون عادل من أول فترة حكمه إلى آخر الفترة.

د. صلاح:

والعدل أساس الملك حتى عند غير المسلمين، ابن خلدون يقول: (دولة الإسلام بالظلم تزول ودولة الكفر بالعدل تطول) فأصبح العدل هو الميزان.

د. راغب:

و ابن تيمية يقول: "إن الله يقيم الأمة العادلة وإن كانت كافرة ويسقط الأمة الظالمة وإن كانت مسلمة".

هذه المفاهيم هي سنن، وأول من يضيع إذا ضاعت هذه المفاهيم هو الحاكم، وعندما ذكر بنا عزَّ وجلَّ قصة فرعون عليه لعنة الله، وذَكَره كمثال للطواغيت في الأرض قال الله تعالى في نهاية القصة: { يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ ۖ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ} [هود: ٩٨].

إذًا هو يحمل من العذاب أكثر من أقوامه لأنه له من الذنب ما فعل ويحمل ذنوبهم لا ينقص ذلك من أوزارهم شيئا، ولأنه كان سبب في ظلم كثير، فقد يضع الحاكم قانون واحد ظالم فيطبق على عشرات الآلاف بل والملايين وقد يُورّث هذا القانون إلى عدة أجيال بعده فيظل حامل لهذا الذنب.

قال رسول الله صل الله عليه وسلم: «ومن سنَّ سنَّةً سيِّئةً فعملَ بِها، كانَ عليهِ وزرُها وَوِزْرُ مَن عملَ بِها من بعده لا ينقصُ من أوزارِهِم شيئًا»

الراوي: جرير بن عبدالله -المحدث: الألباني

المصدر: صحيح ابن ماجه - الصفحة أو الرقم: ١٦٩

خلاصة حكم المحدث: صحيح

إن إقامة علاقة حميدة وسوية بين العالِم والحاكم المستفيد الأول منها هو الحاكم، ولا ينبغي للحاكم أن يغضب من هذه الدعوات التي تأمر بالنصح والإرشاد فهو كمن في صحراء تائه فأرسلت له دليلًا يقول له الطريق من هنا وإلى هنا، حتى يصل إلى بر الأمان، فلا يغضب منه.

د. صلاح:

كان فرعون يقول: {مَا أُرِيكُمْ إِلا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلا سَبِيلَ الرَّشَادِ} [غافر:٢٩]، فهو يعرف الطريق في ظنه.

د. راغب:

فإذا كنا ندرس التاريخ بعبرة وعظة ودروس فإننا ندعو الحكام لدراسة هذا التاريخ.

فرعون مهما طال عمره فهو يموت في النهاية، ومهما اتسع ملكه فهو يتركه في النهاية.

د. صلاح:

حتى وإن استمر المُلك فهل سيتحمل الحاكم دعوات المظلومين في السَحَر!

د. راغب:

و هنا لانقصد الحاكم الأعلى فقط، بل كل من حكم على قوم ممكن سواء حاكم في محافظة أو إدارة أو أي مسؤول.

الصحابة رضوان الله عليهم كانوا يهربون من الحكم والولاية لخطورتها، عندما تولى سيدنا عمر بن الخطاب إمارة المؤمنين وكان يُقسم الولايات على الصحابة، فكانوا يرفضون الحكم والولاية فيقول لهم(إذًا ستتركونني لوحدي)

فلا يريد أحدًا أن يتولى أي شيء، وسيدنا عتبة بن غزوان رضي الله عنه لما أرسله سيدنا عمر لولاية البصرة رفض لكن أصرَّ عليه سيدنا عمر بن الخطاب فذهب وعاش أميرًا فترة من الزمن وكان يُحدِث الناس عن زهادة الدنيا وحقارة الدنيا، وهو كان سابع سبعة مع الرسول صلى الله عليه وسلم يأكل أوراق الشجر في الشِعب، فإذا به يعود إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه ويقول له: (أعزم عليك ألا تعيدني إلى هذا المكان).

فيعزم عليه عمر بن الخطاب أن يعود أميرًا على البصرة، وهو في طريقه إلى البصرة كان يدعو الله عزَّوجلَّ ويقول (يا رب إما أن تقبضني أو تعيدني إلى بلادي، لا أريد الإمارة) فيقبضه ربنا سبحانه وتعالى ويسقط عن الجمل ميتًا.

عندما عُزل سيدنا خالد بن الوليد لعن الإمارة وتولاها أبو عبيدة بن الجراح قال له (ليعلم الوالي أنه أقرب إلى الفتنة من أخيه وما للدنيا نعمل).

د. صلاح:

أتعجب أن سيدنا بن الوليد لما عَرِفَ أن خِطاب العزل أتى وهو في أثناء المعركة وأن أبا عبيدة لم يُقدِم له الخِطاب في وقته، لأن أبو عبيدة لا يستشرف المسؤولية ولا يتمناها فجاءه الخطاب، فقال خالد بن الوليد معاتبًا أبا عبيدة: (ما ظنك بأخيك؟)، فهو لم يكن ليحزن عن الإمارة لأنهم أخوة في الله ويعملون لله عزَّ وجلَّ، هذا المنطق يجب أن يسود ويقود الأمة.

د. راغب:

الحاكم يحتاج لمن يهديه إلى الطريق السليم والخروج من هذه الأزمة، أعتبر كل حكام الدنيا في أزمة كبيرة جدًا لأنه في فترة حكمه لن يسأل عن عشرة فقط من عامة الناس لكنه سيسأل عن شعب بكامله، قال عمر بن الخطاب: (لو عثرت دابة في العراق لخشيت أن يسألني الله عنها لِمَ لم تُعَد لها الطريق يا عمر).

إن العالِم الذي يشعر بدوره ناحية الحاكم هو في المقام الأول يفيد الحاكم وينصحه لأجل مصلحة الحاكم.

ثم إن العالِم يستفيد لأنه قَدَّم النصيحة في محلها وأدى الدور الّذي اوكله الله عزَّ وجلَّ إليه، وبهذا تنصلح الأمة الإسلامية والعالم أجمع.

د. صلاح:

هناك من يقول (لا يذهب عالم إلى حاكم إلا أذهبَ من دينه بقدر ما أخذ من دنياه) وكذلك (كنا إذا رأينا العالِم يتردد إلى بيوت الخلفاء والأمراء والحاكم نقول قد تُوُدِعَ منه) ،

الآن يوجد زهادة عند عددٍ من العلماء فبعضهم لا يذهب إلى الحاكم إلا إذا طلبه، وغيرهم ينطبق عليهم قول الله تعالى: {يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنبَائِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا فِيكُم مَّا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا} [الأحزاب:٢٠]

يوجد وجوه تطرف وغلو في المسألة.

د. راغب:

دائمًا الوسطية أفضل شيء، وكما قال الله تعالى: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا} [البقرة: ١٤٣]

كان الإمام أبو حامد الغزالي رحمه الله كان يقول في حجة الإسلام: أن علاقتك بالحاكم تكون على ٣ وجوه: "إما أن يدخل عليك وهذا أهونها، وإما أن تدخل عليه وهذا أشرها، والوسط بين ذلك أن تكون العلاقة حسب الحاجة".

د. صلاح:

أي تصبح العلاقة تناصح في الله مع زهادة فيما عنده، لأن العالِم لديه القرآن، ومن أوتي القرآن فرأى أحد أوتي أفضل منه فقد عَظَّمَ ما حقّر الله وحقّر ما عظّم الله ،

إذا لم يدخل العالِم على الحاكم وهو يشعر أن كل ما لدى الحاكم لا يساوي آية واحدة يحملها العالِم في قلبه فهمًا وعلمًا وفقهًا، أن لم يدخل بهذا الاعتزاز وأن {لِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ} [المنافقون:٨]، سوف يُؤخَذُ من دينِه على قدر ما أخَذَ من دُنياه.

فإذا ذهب إلى الحاكم بهذا الاعتزاز بدينه فإنه سيكون دعمًا للحاكم، ناصحًا له، ودعمًا للأمة أيضا، أما إن كان يذهب إلى الحاكم وهو يطمع في منصب، أو لمصالح شخصيه أو يطمع في مال فلن يستطيع أن يقول الحق كاملًا أبدًا.

د. راغب:

إذًا الحاكم يحتاج نصح العالِم والعالِم يحتاج لأن يقول الحق إلى الحاكم.

د. صلاح:

و قال الله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ ۙ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ} [البقرة:١٥٩]

(ما) هي اسم موصول تعني أي آية أو اكثر..

ثم يأتي الاستثناء، فيقول الله تعالى: {إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ} [البقرة:١٦٠].

فأتى الاستثناء هذه مرة بقول {وَبَيَّنُوا}، فلا بدّ حتى تقبل توبته أن يندم على ما فعل وأن يصلح ما بينه وبين الله وما بينه وبين الناس وأن يبين ما كتمه من الحق.

فنحن إذًا أمام نوعين من العلماء عالم رباني قال فيه الله تعالى: {يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ} [المجادلة:١١] ،و عالم شيطاني أخرس {أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ} [البقرة:١٦١]

وذلك لأنه كَتَمَ حقًا كان يجب له أن يظهره.

(الاتصال بالله)

د. راغب:

و هذا الحق الذي كتمه أعطاه إياه رب العالمين مِنّةً منه سبحانه وتعالى، فرزقه هذا العلم ثم لم يستخدمه فيما يرضي الله عزَّ وجلَّ.

كيف يمكن أن نربي العالم ليكون على هذه الصورة ويستحضر هذا المعنى وينطلق به ويتكلم دون وجل ولا خوف؟

كلما كان العالم موصولًا بالله، وكلما كانت خشيته القلبية عالية لله عزَّ وجلَّ وكلما كان يقوم الليل ويذكر الله عزَّ وجلَّ بالنهار ويقرأ القرآن وعلى دوام الصلة بالله عزَّ وجلَّ، كلما سَهُلَ عليه أن يقوم بهذه المهمة، وكلما ابتعد عن الله كلما صَعُبَت عليه هذه المهمة.

أذكر هذا الموقف الرائع للعز بن عبد السلام رحمه الله، وهو من العلماء العَامِلِين الذي يمكن ألا ننقل عنه أقواله فقهية بقدر ما تنقل عنه المواقف العملية.

بداية عندما دخل مصر للمرة الأولى، وكانت مصر في ذلك الوقت تحت حكم الصالح نجم الدين أيوب الذي كان من أفضل حكام بني أيوب بعد صلاح الدين، فالملك الصالح كان قد تولى الحكم حديثا واحضر العز بن عبد السلام كلاجئ إلى مصر بعد أن خرج من السجن في القدس، وأعطى له القضاء والإفتاء وكان له إمامة مسجد عمرو بن العاص، وأعطاه الملك صلاحيات كثيرة جدا، وأخذ وضعه يختلف تمامًا مما كان فيه، حتى اعتبره الكثير من العلماء انه انتقل من الأزمة إلى الفرصة.

و يظن الكثير هنا أنه عليه أن يتمسك بهذه الوظيفة وهذا الوضع الاجتماعي الذي حصل عليه،

و إذا به في أول أيامه عندما يلتقي بالملك الصالح نجم الدين أيوب وهو مع الوزراء في موكب كبير وسط السوق، فيقول الإمام العِز بن عبد السلام لـ الملك الصالح امام الجميع: (ماذا تقول لربك يوم القيامة عندما يقول لك لقد بوَّأتُ لك مُلكَ مصر وتترك فيها ما يفعل في حاناتها؟)، فقال الملك: ما تقصد؟، قال: حانات كذا وكذا، وعدَّ له الحانات التي تُباع فيها الخمور، ولم يكن يعرف الملك الصالح بهذه الأمور لأنه كان حديث الحكم.

فسأل الصالح الأمراء حوله: هل ما يقوله العالِم عز بن عبد السلام صحيح؟

فقالوا: نعم هذه الحانات موجودة منذ أيام أبيك، أبو الصالح نجم الدين أيوب.

فقال الحاكِم للعالِم: يا سيدي هذه كانت من أيام أبي.

فقال: أنت ممن يقول الله فيهم: {إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ} [الزخرف:٢٢].

فمن يستشعر القرآن في قلبه ويتصل بالله عزَّوجلَّ يفتح له أبواب المعرفة في مثل هذه المواقف الصعبة التي من الممكن أن يهتز بها الرجال.

فأُلجِمَ الملك الصالح نجم الدين أيوب وقال: اذهبوا إلى هذه الحانات فأغلقوها من الساعة.

انطلق العز بن عبد السلام إلى بيته وجاءه أحد تلامذته وقال له: كيف استطعت أن تقول له هذه الكلمات وهو في حاشيته؟

قال العز بن عبدالسلام له: يا بني إني استحضرت هيبة الله عزَّوجلَّ فصار في عيني كالقط.

وهذا العالِم أسطورة ونفتخر أننا ننتمي إلى أمة تضم مثل هؤلاء العلماء، وموفقه ليس موقفًا عابرًا، لا يعتقد الذين لم يجربوا قيام الليل ولم يجربوا التواصل الدائم والمستمر مع رب العالمين أنه سيقوم بمثل هذا الموقف مع الحاكم بكل سهولة، فالمُثبّت من ثبَّته الله عزَّوجلَّ: {يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ} [إبراهيم:٢٧].

لا بد من أن يكون القلب متصل بالله عزَّوجلَّ، وإن صلح هذا القلب صلح الجسد كله، والقلب بيد الرحمن سبحانه وتعالى.

د. صلاح:

الحديث ذو شجون والعز بن عبد السلام لا بد من إفراد ملفًا له لكننا نؤكد على أن صناعة العالم الرباني تحتاج إلى هذا التواصل القوي المتين مع رب العزة سبحانه وتعالى وليس فقط حفظ المتون، (التواصل مع القوي المتين وليس فقط حفظ المتون).

لأن الحافظ للمتون فقط لن يكون عنده هذا القلب الشجاع ولا الاستحضار للآيات، لن يستطيع بالفعل أن يقف موقف العز بن عبد السلام.

وطالما أن هناك عالِم قدوة ونموذج فنريد عالمًا مثله يشجع العلماء على أن يكونوا مثله، نريد أن يبدأ العالم الرباني بأن يكون الناصح الأمين الّذي يريد وجه رب العالمين، وعلينا جميعا أن نتظافر على إيجاد عالِمًا ربانيًا بهذا الإعداد التربوي العملي الدقيق الّذي عنوانه {إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ} [التوبة:٥٩]